جيفارا الإفريقي... دراسة في الفكر السياسي لتوماس سانكارا

Africa's Che Guevara… a study of the political ideology of Thomas Sankara

تأليف: د. حمدي عبدالرحمن

Hamdi Abdul Rahman, PhD

مراجعة: عمر عبدالظاهر عزام - Reviewed by Omar Abdul-zhaher Azzam

شـهدت القارة الإفريقيـة في فترة ما بعد الاستعمار عددًا من النماذج الثورية التـي سـلط الضـوء عـلى زعمائها مـن أمثال جمـال عبدالناصر في مـصر، وكوامي نكروما في غانـا، وبومدين في الجزائـر، ومثل هؤلاء ولدت أرض "فولتا العليا" التي تغير اسـمها بعـد ذلـك إلى "بوركينا فاسـو" الزعيم الثائر توماس سـانكارا الذي لقب بجيفـارا إفريقيا تشبيهًا له بالثائر اللاتيني أرنستو تشي جيفارا.

سنكارا الذي ولد عام 1949 وتوفي 1987 لم يحكم سوى 4 سنوات، استمرت من 1983 حتى 1987، لكنه اسـتطاع خلالها تنفيذ جنونه الثوري على الأرض، يقول سـانكارا في مقابلـة أُجريت معه عـام 1985: "لا يمكن تنفيذ أي تغيير جوهري دون وجود قدر من الجنون. ففي هذه الحالة لابد من شـجاعة التمرد على الصيغ الموروثة، وشـجاعة ابتـكار المسـتقبل. ألم يكن مجانـين الأمس هم أصحـاب الفضـل في أننـا نعمـل بوضـوح ورؤيـة تامة اليـوم؟! إننـي أريد أن أكـون من هـؤلاء المجانين"، وقد نجـح بالفعـل أن يكـون أحد هـؤلاء، ويمنح مـن بعده القدرة على العمل والرغبة في التغيير، ليرفع شـباب بلده صورتـه ومبادئه بعـد أكثر من عقدين مـن وفاته، خلال الانتفاضة التي شـهدتها بوركينا فاسو في أكتوبر/ تشرين الأول 2014.

يبحث الدكتور حمدي عبدالرحمن أستاذ الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة في هذا الكتـاب الصـادر عن مكتبـة جزيـرة الورد بالقاهرة سنة 2015 ويقع في 200 صفحة- عـن أسـباب اسـتمرار المـوروث الفكـري والثقافي لتوماس سـانكارا، وتبني الشـباب الحالمـين بالتغيـير في بوركينـا فاسـو أفـكاره بعـد مـرور مـا يقـارب العقدين عـلى رحيله، يقول المؤلف في مقدمة الكتاب: "إن السبب هو استمرار سياسـات الفشل، وعدم تحقيق إنجازات ملموسة يشعر بها المواطن العادي... كما أن التحولات الديمقراطية التي شهدتها العديد من البلدان الإفريقية لم تفلح في تحقيق أي تغيـير حقيقي. لاتـزال النخـب الإفريقيـة الحاكمة تدير ظهورها لمطالب وطموحات الجماهير العريضة، في نفس الوقـت الذي تولي فيـه وجوهها شـطر العواصم الغربية طلبًا للمودة والرضا".

كل تلك الأسباب جعلت من توماس سانكارا رمزًا ملهمًا للتغيير؛ فهـو الذي حمل على عاتقـه هموم الجماهير المهمّشـة وأوجاعها ليقول للعالَم كلّه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1984: "إنني أتحدث نيابة عن ملايين البشر الذين يعيشـون في معازل، إما بسـبب لون بشرتهم الأسود، أو لأنهم جاؤوا من ثقافات مختلفة وهم يعيشون بالـكاد في وضع أقرب إلى الحيـوان"، ثم يقول معبّرًا عن

أممية الثورة في فكره: "إن ثورتنا في بوركينا فاسو تعبّر عن آلام ومصائب جميع الشعوب، كما أنها تستلهم الخبرات السابقة منذ بدء الخليقة. إننا نريد أن نكون ورثة جميع الثورات العالمية والنضالات من أجل التحرر في دول العالم الثالث".

يسلّط المؤلف الضوء في توطئته لعرض الفكر السياسي للزعيم البوركيني الثائر على عالم الأفكار في القارة الإفريقية، وطبيعة تلك الأفكار التي قام عليها الفكر السياسي الإفريقي، والتي اتسمت بسمتين رئيستين، هما: "أفرقة المفاهيم والأفكار استنادًا إلى خصوصية الواقع الإفريقي"، و"المزاوجة بين اللغة المستوحاة من المصادر الخارجية واللغة المستوحاة من المصادر التقليدية في صياغة الفكر السياسي الإفريقي"(ص28)، ثم ينتقل لعرض مصادر الفكر السياسي الإفريقي، وأهم القضايا التي يناقشها ذلك الفكر، والتي حصرها في "الاشتراكية الإفريقية، والشخصية الإفريقية، و(الزنوجة)، والجامعة الإفريقية"، ثمّ يتطرق لجدلية "الأصالة والمعاصرة" في الفكر السياسي الإفريقي، وسؤال الهوية الذي خاض غماره غير واحد من المفكرين الأفارقة من أمثال السنغالي "شيخ أنتا ديوب"، والكونغولي "فالنتين موديمبي"، وفي هذا الصدد يشير المؤلف إلى أن ميراث الاستعلاء الأوروبي في التعامل مع سكان القارة السمراء هو الذي دفع الفكر السياسي الإفريقي المعاصر إلى التركيز على سؤال الهوية باعتباره محددًا للنهضة.

ويميز الدكتور حمدي عبدالرحمن في عرضه للفكر السياسي الإفريقي بين ثلاثة أنماط كبرى لذلك الفكر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين:

النمط الأول يتمثل في المركزية الإفريقية المرتكزة على الوعي الذاتي، وينطلق من الاعتزاز الجمعي للسود بأنفسهم وتصميمهم على تحقيق ذواتهم.

النمط الثاني وهو الحداثي، الذي ينطلق من ضرورة المساواة بين بني البشر، وعدم الانشغال بقضايا الثقافة والعرف، والاستفادة من الخبرات السياسية للآخرين أينما كانوا.

أما النمط الثالث فيتمثل في نموذج التحرر الوطني، الذي يقوم على افتراضات ثلاثة، متمثلة في: "حتمية زوال الرأسمالية، والانقسام الحادّ بين الأغنياء والفقراء في العالم، وضرورة أن تفرض الشعوب المقهورة إرادة التغيير".

ومن أجل فهم وتقدير التحولات الثورية في تجربة توماس سانكارا ينطلق المؤلف بقارئه إلى السياق العام الذي ظهر فيه ما أطلق عليه "السنكارية"، حيث يقدم عرضًا لواقع بوركينا فاسو فيما بعد الاستعمار (1960)، ممهدًا لذلك بإلقاء الضوء على التركيبة الإثنية والاجتماعية لهذا البلد الإفريقي الصغير، وكيف استطاعت فرنسا استغلال الانقسامات والصراعات العرقية للهيمنة على تلك المنطقة، وما تبع ذلك من استغلال للسكان، واستيلاء على ثرواتهم ومواردهم، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الاستقلال.

بعد استقلال بوركينا فاسو تحت اسم "فولتا العليا" في عام 1960 كان الوريث الذي تسلّم السلطة من فرنسا مجموعة محدودة من الطبقة البرجوازية، التي تتألف من ضباط الجيش الفاسدين، وكبار العاملين في جهاز الدولة تحت إشراف فرنسي بالطبع.

وفي ظل هذا الوضع الذي يطلق عليه المؤلف: "النيوكولونيالي"؛ أي (الاستعماري الجديد) "أضحت ثقافة تغيير السلطة تعتمد على ضباط الجيش الذين انشغلوا بالتدخل في الحياة السياسية، فأضحوا يطيحون ببعضهم بعضًا، عن طريق الانقلابات المضادة".

ورصد المؤلف التطورات السياسية في بوركينا فاسو منذ الاستقلال، فكانت كالآتي:

- الاستقلال 5 أغسطس/ آب 1960.
- الجمهورية الأولى 1960–1966 برئاسة موريس ياميوغو.
- انقلاب عسكري 3 يناير/ كانون الثاني 1966، وتولي سانجولي رئاسة البلاد بعد سيطرة الجيش على السلطة.
- الجمهورية الثانية 1971–1974 .
- انقلاب عسكري 8 فبراير/ شباط 1974.
- الجمهورية الثالثة 1978–1980.
- انقلاب عسكري 25 نوفمبر/ تشرين الثاني 1980.
- انقلاب عسكري 7 نوفمبر/ تشرين الثاني 1982.
- انقلاب عسكري 4 أغسطس/ آب 1983 وتولي توماس سانكارا رئاسة البلاد، وتغيير اسمها في العام التالي من فولتا العليا إلى بوركينا فاسو.

كانت لنشأة توماس إيزيدور نويل سانكارا، الذي ولد في 21سبتمبر/ أيلول 1949 في إحدى القرى الفقيرة شمالي بوركينا فاسو ولانتمائه إلى جماعة أقل تميزًا في الوسط الاجتماعي المحيط بها- أكبر الأثر في تشكيل وعيه الطبقي، ورفضه بعد ذلك الامتيازات التقليدية الموروثة كافة، حسبما يرى الدكتور حمدي عبدالرحمن(ص62)؛ حيث عانى سانكارا في طفولته المبكرة التمييز الذي وصل إلى درجة أنه اعتُقِل والده بسبب عبثه هو بدراجة أحد أبناء الأوروبيين المستعمرين!

التحق سانكارا بالمدرسة الثانوية (ليسيه)، قبل أن ينضم إلى أكاديمية "لاميزانا" العسكرية 1966، التي تعرف داخلها إلى مفاهيم وأفكار سياسية كالاشتراكية والاستعمار والإمبريالية والتحرر الوطني... وغيرها، ولتميز سانكارا اختير لدراسة العلوم العسكرية في مدغشقر، ليعود إلى بلاده عام 1973، ويحصل على وظيفة ملازم، ثم مشرفًا بوحدة المهندسين التابعة للجيش، التي اكتشف خلال عمله بها مدى الفساد المستشري في مؤسسات البلد.

ابتداء من عام 1975 حرص سانكارا وعدد من زملائه بالجيش على الاتصال بالجماعات اليسارية المدنية، وفي عام 1981 تولى سانكارا منصبًا وزاريًّا في الحكومة لم يمض فيه سوى 7 أشهر فقط، غير أنه حصل منها على شعبية كبيرة بسبب تواضعه والإصلاحات التي قدمها، وأهمها حرية الصحافة. بعد نجاح الانقلاب العسكري الذي وقع في عام 1982 تولى توماس سانكارا رئاسة الوزراء، فاستغل هذا المنصب للتعبير بصراحة عن أفكاره الثورية، مما أدى إلى توتر الأجواء بينه وبين رئاسة الدولة، حتى وصل الأمر للصدام، وتولي سانكارا السلطة في 4 أغسطس/ آب 1983.

استولى سانكارا على الحكم فيما يشبه الانقلاب العسكري، لكنه قام بإجراءات ثورية جريئة، جعلت من يوم 4أغسطس/ آب بداية عهد جديد، عبّر عنه الرئيس الثائر بإعلان مجموعة من الأهداف التي يطمح لتحقيقها، كان أبرزها "رفض مفهوم الدولة التي تناضل من أجل البقاء فقط، والتخفيف من حدة الضغوط المفروضة على المجتمع، وإقامة نظام ديمقراطي، وكسر القبضة الخانقة للبيروقراطية، وإعادة بناء الإدارة الحكومية".

ينتقل الباحث حمدي من سرد أهداف الثورة المعلنة إلى سرد إنجازات سانكارا في الأعوام الأربعة التي قضاها على رأس السلطة، منها تأميم جميع الأراضي والثروة المعدنية، وتغيير اسم البلاد من فولتا العليا إلى بوركينا فاسو، وإلغاء الجزية الريفية أو ضريبة الرؤوس،

وإطلاق حملة لمحو الأمية، وحملة لزراعة 10 ملايين شجرة.

وتحت عنوان أيديولوجية التغيير الثوري، استعرض المؤلف أبرز مكونات (مانفيستو) الثورة البوركنابية بقيادة سانكارا، وعَدّ خطاب توماس سانكارا في 2 أكتوبر/ تشرين الثاني 1983 أفضل معبّر عنه، وهو الخطاب الذي عرف بـ"خطاب التوجه السياسي"، وتحددت فيه المهام الكبرى للثورة، وهي: "تصفية الهيمنة والاستغلال الإمبريالي، والقيام بحملة تطهير، وإزالة كافة الحواجز الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية والثقافية التي تكرس لحالة التخلف".

في عرضه لأيديولوجية التغيير الثوري يشير المؤلف إلى ملامح ومحددات الفكر السانكاري الذي عدّ ثورة أغسطس تتويجًا للنضال الشعبي ضد قوى الهيمنة في الداخل والخارج، ووريثًا شرعيًّا لثورات العالم رغم خصوصيتها الناتجة عن خصوصية الشعب البوركنابي، ثم يشير إلى الإطار المؤسسي الذي حاول سانكارا عن طريقه تجسيد مبدأ سيادة الشعب، إضافة إلى (ثورنة) قطاعات المجتمع كافة، بما فيها الجيش والاقتصاد والمرأة.

وحول مفهوم بناء الدولة عند سانكارا يلمح مؤلف الكتاب إلى حديث الزعيم البوركنابي مرارًا عن الوطنية، لكنه يؤكد تجنبه النزوع إلى القومية بالمعنى الضيق للمفهوم، حيث حاول "ربط الحركة الثورية في بلاده بسياقها الإقليمي والقاري، بل ومحيطها العالمي(ص100)، وبخصوص التنظيم السياسي، يشير إلى أن شكل السلطة يُشكَّل وفقًا لنمط الدائرة المركزية التي يأتي في القلب منها سانكارا ورفاقه في قيادة الثورة، ثم الحكومة، ثم لجان الدفاع عن الثورة.

وعلى امتداد فصل كامل من الكتاب يستعرض المؤلف السياسة الاقتصادية عند سانكارا تحت عنوان "التنمية المستقلة وسياسات الاعتماد على الذات"، ثم ينتقل للحديث عن السياسة الخارجية، مشيرًا إلى موقف سانكارا الحازم في وقوفه إلى جانب الشعوب المظلومة في جنوب إفريقيا وناميبيا وغيرهما، ورفضه مبدأ الإملاء في السياسة الخارجية، وتبنيه مبدأ الوحدة الإفريقية بمفهوم واسع غير مناهض لبقية شعوب العالم.

في نهاية الكتاب يحاول الباحث الإجابة عن هذا السؤال: "ماذا بقي من السانكارية السياسية؟"، حيث يخلص إلى أن الفكر السياسي والاجتماعي لتوماس سانكارا لايزال وثيق الصلة بنضالات وعذابات الشعوب الإفريقية في الوقت الحاضر، وأن النموذج السانكاري في القيادة يقدّم -بحسب بعض الآراء- عددًا من المقومات التي تمثل أساسًا لابتكار المستقبل، تتلخص في: الرؤية الثاقبة، والجنون الثوري، والتضحية، والالتحام بقضايا الجماهير.

إن دراسة شخصية كاريزمية نادرة الظهور كتوماس سانكارا وفكره السياسي الجريء تُعدُّ رافدًا مهمًّا للمتطلعين إلى غد إفريقي أفضل، والحالمين بتغيير إيجابي لواقع الشعوب الإفريقية التي لاتزال تعيش الظروف نفسها التي خرج من ركامها ذلك القائد الفذّ، الذي كانت نهايته مأساوية، حين اغتاله رفاقه داخل مكتبه في 15 أكتوبر/ تشرين الأول 1987، لكنهم لم يغتالوا فكره، فهو القائل: "ربما يُقتَل الثوار لكنّ أفكارهم لا تموت".